المحاضرة العاشرة:

قضية اللفظ والمعنى

تمهيد:

تعدّ قضية اللفظ والمعنى من أبرز القضايا التي اهتمّ بها النقاد العرب قديما، ذلك أنها كانت مدار بحثهم في أسباب جودة النصوص، والواقع أن جذور هذه القضية تعود إلى تساؤل النقاد، والعلماء عن مكمن إعجاز النص القرآني، وهو ما أثار جدالا واسعا بين العلماء، أدّى لانقسامهم، بين من يرى في اللفظ وسيلة لبناء النص، وله يعود سرّ الفصاحة، والجزالة، وصحة العبارات، وبين من يرجع للمعنى مزية التفوق، ومفاتيح البلاغة، كونه روح النصّ وقوامه. من هنا أخذ العلماء في شرح وتفصيل آرائهم، وتدعيمها بما يثبتها من حجج وبراهين.

1-قضية اللفظ والمعنى عند الجاحظ:

يضع النقاد الجاحظ في خانة أنصار اللفظ، ويعدّونه من العلماء الذين أرجعوا المزية في العملية الإبداعية إلى الصياغة اللفظية، وذلك ما فُهِم من حديثه عن ماهية الشعر، فقد أنكر استحسان أبي عمرو الشيباني لبيتين سمعهما في المسجد. يقول صاحبهما:

لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا أفظع من ذاك لـذل السؤال

فالجاحظ في تعليقه على هذين البيتين يشير إلى أن مفهوم الشعر يختلف عند أهل عصره؛ فمنهم من يرى الشعر في المعنى الحكيم والقول الدال. ومنهم من يراه في القدرة على التأليف والبراعة في التشكيل.

يقول الجاحظ: " وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى. والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي، والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتمييز اللفظ، وسهولته، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضربي من الصبغ، وجنس من التصوير".

فالشعر عند الجاحظ عملية متكاملة، تقوم على انتقاء الألفاظ، واختيارها، وحسن تصوير المعاني. وهو ما عدّه محمد زكي العشماوي" مبالغة في العناية بالشكل، فالشعر صياغة وضرب من النسج، وجنس من التصوير. وقد تطرف الجاحظ في هذه النظرة حتى كاد الحكم على الشعر عنده أن يكون حكما على الجمال الخارجي فيه. دون النظر إلى المحتوى أو المضمون."

أما عبارته الشهيرة " والمعاني مطروحة في الطريق" فقد أصبحت شعارا يصنّف الجاحظ من أنصار اللفظ.

ولعل هذا النص يلخص موقف الجاحظ في أهم القضايا النقدية التي شغلت فكر العديد من النقاد؛ فوضعه البعض في خانة أنصار اللفظ على حساب المعنى " ومنهم من التمس له تأسيسا في مبدأ الفلسفة الأرسطية التي تقدم الصورة على الهيولى والشكل على المادة".

2-قضية اللفظ والمعنى عند عبد الكريم النهشلي (ت 405هـ):

أورد ابن رشيق في كتابه " العمدة" حديثا مقتضبا لأستاذه عبد الكرم النهشلي يقول فيه:" الكلام الجزل أغنى عن المعاني اللطيفة من المعاني اللطيفة عن الكلام الجزل"، ويعلق ابن رشيق بقوله عن عبد الكريم أنّه كان يؤثر اللفظ على المعنى كثيرا في شعره وتآليفه.

وهو ما جعل النهشلي في خانة النقاد الذين رفعوا من شأن الألفاظ، ونسبوا لها مزية التفوق في العملية الأدبية.

3-قضية اللفظ والمعنى عند ابن شرف القيرواني (ت460هـ):

يؤكد ابن شرف على ضرورة توخي النقاد الدقة في قراءة النصوص، والغوص في مضامينها، وعدم الانسياق وراء ما تحمله الصياغة الشكلية، ذلك ان الشكل قد يخفي الحقيقة، ويقول في" أعلام الكلام": " وإن من الشعر ما يملأ لفظه المسامع، ويرد على السامع منه قعاقع، فلا ترعك شماخة مبناه وانظر إلى ما في سكناه من معناه، فإن كان في البيت ساكن فتلك المحاسن، وإن كان خاليا فاعدُده جسما باليا."

ولا يتوقف ابن شرف عند هذا الحدّ بل يصرّح بأفضلية المعاني قائلا: "وكذلك إذا سمعت ألفاظا مستعملة، وكلمات مبتذلة، فلا تعجل باستضعافها، حتى ترى ما في أضعافها فكم من معنى عجيب، في لفظ غير غريب، والمعاني هي الأرواح، والألفاظ هي الأشباح، فإن حسنا فذلك الحظ الممدوح، وإن قَبُح أحدهما فلا يكن الروح." وابن شرف بهذا يجعل من المعاني روح النصوص التي لها مزية الأوّلية، والجودة.

4-قضية اللفظ والمعنى عند أبي حيان التوحيدي:

أبو حيان التوحيدي واحد من النقاد الذين أعطوا للمعنى أولوية في العملية الأدبية، ذلك ما يُفهم في عرض حديثه لعيوب ابن عبّاد: " فأول ما بُلي به أنه فَقَد الطبع، وهو العمود، والثاني العادة وهي المؤاتية، والثالث الشغف بالجاسي من اللفظ وهو الاختيار الرديء، والرابع تتبّع الوحشيّ، وهو الضلال المبين، والخامس الذّهاب مع اللفظ دون المعنى." فيكون الاهتمام بالمعاني أساس العملية الإبداعية عند التوحيدي. وهو ما يؤكّده نقده لابن العميد ذي الكفايتين واهتمامه، وولعه بالألفاظ على حساب المعاني، فيقول التوحيدي:" وكان مع هذا أشدّ النّاس ادّعاء لكل غريبة، وأبعد الناس من كل قريبة، وهو نزر المعاني، شديد الكلف باللفظ."

5-قضية اللفظ والمعنى عند ابن قتيبة:

حاول ابن قتيبة أن يوفّق بين الرأيين، فبيّن أن اللفظ والمعنى معا يشكلان أساس العمل الشعري، وكما أن اللفظ قد يكون جزلا، وقويا، وفصيحا كما قد يكون غريبا ووحشيا، وكذلك المعنى قد يكون مبتكرا شريفا، ويمكن أن يكون مبتذلا، مكرورا لا طائل منه. ويقول ابن قتيبة

في " الشعر والشعراء":"تدبّرت الشعر فوجدته أربعة أضرب: ضرب منه حَسُن لفظه وجاد معناه كقول القائل:

في كفّـه خيزُران ريحُـه عِبـقٌ من كفِّ أروعَ في عرنينهِ شَمَمُ
يُغضي حياءً ويُغضي من مهابَتهِ فمـا يكلّمُ إلاّ حيـن يبتسـمُ

وضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتّشته لم تجد هناك فائدة في المعنى كقول القائل:

ولمّا قضينا من منى كلِّ حاجـة ومسّح بالأركان من هو مـاسحُ
وشُدّت على حدبِ المهارى رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنـا بأطراف الأحاديث بينـنا وسالت بأعناق المطيّ الأباطحُ

وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه كقول لبيد بن ربيعة:

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسهِ والمرءُ يُصلحُه الجليس الصالحُ

وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه كقول الشاعر:

إنّ محلاً وإنَّ مرتحِلا وإنَّ في السّفرِ ما مضى مَهَلا
استأثر الله بالوفاء وبا لحمدِ وولّى الملامة الرّجـلا

وابن قتيبة بهذا لا ينسب الأفضلية للّفظ بشكل دائم، كما لا ينسب المزية للمعنى على نحو دائم فقد تعتري كلا من اللفظ والمعنى حالات، وأوضاع تفيد باتّصافهما بالجودة أحيانا، وبالرداءة أحيانا أخرى.

6-قضية اللفظ والمعنى عند ابن رشيق:

يتضح من خلال ما أورده ابن رشيق في كتابه "العمدة" وتحت عنوان: "باب في اللفظ والمعنى" أنه يساوي بين اللفظ والمعنى، ويعدّهما معا أساس العملية الأدبية، ذلك أنّ اللفظ والمعنى كالجسم والروح، لا يقوم أحدهما دون الآخر، كما لا يتحقّق وجود أحدهما بعيدا عن الآخر. ويقول ابن رشيق:" اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته. فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهُجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور-وما أشبه ذلك-من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح."

ويتّضح ممّا سبق ذكره انقسام العلماء، والنقاد بخصوص قضية اللفظ والمعنى، بين من نسب الفضل والأوّلية للفظ في العملية الشعرية، وبين من رأى في المعنى أساس الشعر وروحه، وبين من حاول التوفيق بذهب يتبنّى التكامل بين هذين العنصرين، ولكنّ الأكيد هو اتّفاق النّقاد على أهميّة اللفظ والمعنى بصفتهما أساس الشعر، وقوامه.